الفصل السابع

القيم الإنسانية

كما يقوم المجتمع المسلم على (العقائد) التي تحدد له فلسفته الكلية عن المبدأ، والمصير، والغاية، وتجيب الإنسان عن أسئلته القديمة الجديدة: من أين؟ وإلى أين؟ ولِمَ؟ .. وبها ظهر أنه **(مجتمع موحِّد)** لا يشرك بالله شيئًا.

ويقوم على الشعائر التي تجسد صلته بالله تعالى في أعمال ظاهرة، وبها ظهر أنه **(مجتمع متعبد)** أهم وظائفه عبادة الله تعالى.

ويقوم على الأفكار والمفاهيم الواضحة التي تجعله يقوِّم الأعمال والمواقف والأشخاص والمذاهب من خلال موازينه الخاصة، التي لا تنسبه ليمين أو يسار فهو **(مجتمع فكري)** متميز.

ويقوم على أخلاق وفضائل يؤمن بها إيمانه بدينه وشريعته، فهي جزء منه، باعتبارها أوامر ونواهي صادرة إليه من ربه سبحانه، فهو **(مجتمع أخلاقي)**.

ويقوم ذلك المجتمع على آداب وتقاليد خاصة تجعله نسيج وحده، غير مقلد لغيره، ممن بَعُد عنه زمانًا، أو بَعُد عنه مكانًا.

كما يقوم المجتمع على ذلك كله، يقوم كذلك على (القيم الإنسانية) الرفيعة، التي تتطلع إليها البَشرية الراقية.

وأعني بالقيم الإنسانية تلك التي تقوم على احترام كرامة الإنسان وحريته وحرماته، وحقوقه، وصيانة دمه وعرضه، وماله وعقله ونسله، بوصفه إنسانًا، وعضوًا في مجتمع.

ونركز هنا على مجموعة من القيم الأساسية وهي: العلم، والعمل، والحرية، والشورى، والعدل، والإخاء.

● **العلم :**

العلم قيمة من القيم العليا ، التي جاء بها الإسلام وأقام عليها حياة الإنسان المعنوية والمادية ، الأخروية والدنيوية ، وجعله طريق الإيمان وداعي العمل ، وهو المرشَّح الأول للخلافة في الأرض ، وبه فُضِّل آدم أبو البَشر على الملائكة ، الذين تطلعوا إلى منصب الخلافة ؛ لأنهم أعبد لله من الذين توقعوا منهم أن يفسدوا في الأرض ويسفكوا الدماء ، فقال تعالى ردًّا عليهم : ﴿ **إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٣٠ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا** . . . . ﴾ الآيات (البقرة:٣٠-٣٣) .

إن الإسلام هو دين العلم ، والقرآن كتاب العلم ، وأول ما نزل منه على الرسول الكريم ﷺ : ﴿ **ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ** ﴾ (العلق:١) والقراءة هي باب العلم .

والقرآن : ﴿ **كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ** ﴾ (فصلت:٣).

والقرآن يجعل العلم أساس التفاضل بين الناس : ﴿ **قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ** ﴾ (الزمر:٩) .

كما يجعل أهل العلم هم الشهداء لله تعالى بالتوحيد ، مع الملائكة : ﴿ **شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِ** ﴾ (آل عمران:١٨).

وأهل العلم كذلك هم المؤهلون لخشية الله تعالى وتقواه ﴿ **إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ** ﴾ (فاطر:٢٨) ، فلا يخشى الله إلا مَن عرفه ، وإنما يُعرف الله بآثار قدرته ورحمته في خلقه ، ولهذا جاءت هذه الجملة في سياق الحديث عن آيات الله تعالى في الكون : ﴿ **أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَا** [١] **وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ** [٢] * **وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ** [٣] **إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ** ﴾ (فاطر:٢٧-٢٨) .

---

(١) فيه إشارة إلى علم النبات والزراعة .

(٢) فيه إشارة إلى علم الجيولوجيا .

(٣) فيه إشارة إلى سائر علوم الحياة والإنسان وما يتعلق بهما .

والقرآن أعظم كتاب ينشئ (العقلية العلمية) التي تنبذ الخرافة، وتتمرد على التقليد الأعمى، للأجداد والآباء أو للسادة والكبراء، أو للعوام والدهماء، وترفض الظنون والأهواء في مقام البحث عن الحقائق والعقائد اليقينية، ولا تقبل دعوى إلا ببرهان قاطع، من المشاهدة المؤكدة في الحسيات، ومن المنطق السليم في العقليات، ومن النقل الموثق في المرويات.

ويعتبر القرآن النظر فريضة، والتفكير عبادة، والبحث عن الحقيقة قُربة، واستخدام أدوات المعرفة شكرًا لنِعَم الله، وتعطيلها سبيلاً إلى جهنم.

اقرأ هذه الآيات في القرآن، وهي غيض من فيض:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (البقرة:١٧٠).

﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ (الأحزاب:٦٧-٦٨).

﴿ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف:٣٨).

﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ (النجم:٢٨).

﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ (النجم:٢٣).

﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (ص:٢٦).

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل:٧٨).

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ (الإسراء:٣٦).

﴿ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (الأنعام:١٤٣).

﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ (الأنعام:١٤٨) .

﴿ ٱئْتُونِى بِكِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ هَـٰذَآ أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ (الأحقاف:٤) .

﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ (البقرة:١١١) .

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ (الأعراف:١٨٥) .

﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (يونس:١٠١) .

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ﴾ (سبأ:٤٦) .

وينوِّه القرآن في كثير من آياته بـ﴿أولي الألباب﴾ ، و﴿أولي النهى﴾ ، و﴿أولي الأبصار﴾ . والمراد بالبصر هنا : العقلي لا الحسي .

ويبيِّن أن في كتابه المسطور (القرآن) ، وكتابه المنظور (الكون) آيات ﴿لقوم يتفكرون﴾ ، و﴿لقوم يعقلون﴾ ، و﴿لقوم يعلمون﴾ .

وكم فيه من فواصل تنبه العقول الغافلة مثل : ﴿أفلا تعقلون﴾ ؟ ، ﴿أفلا تتفكرون﴾؟ .

وعلماء الإسلام متفقون على أن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وأن منه ما هو فرض عَيْن ، ومنه ما هو فرض كفاية .

ففرض العَيْن ما لا بدَّ للمسلم منه في فهم دينه عقيدة وعبادة وسلوكًا ، وفي عمل دنياه ، حتى يكفي نفسه ، وأسرته ، ويُسهم في كفاية أمته .

وفرض الكفاية كل ما به قوام الدين والدنيا للجماعة المسلمة ، من علوم الدين وعلوم الدنيا .

ولهذا قرر علماء المسلمين أن تعلم الطب والهندسة وغيرهما من فروع العلم ، وكذلك تعلم الصناعات التي لا تقوم حياة الناس إلا بها ، فرض كفاية على الأمة ،

فإذا وُجِد فيها عدد كاف من العلماء والخبراء والفنيين في كل مجال ، بحيث تُسَد به الثغرات ، وتُلبَّي الحاجات ، فقد أدت الأمة واجبها ، وسقط الإثم والحَرَج عنها ، وإذا قصرت الأمة في جانب من هذه الجوانب الدنيوية ، وغدت عالة على غيرها كليًا أو جزئيًا ، فالأمة كلها آثمة ، وبخاصة أولو الأمر فيها .

وعلى ضوء هذه المعاني قامت حضارة إسلامية رفيعة البنيان ، متينة الأركان ، جامعة بين العلم والإيمان .

ولم يُعرف في هذه الحضارة ما عرف في أمم أخرى من الصراع بين العلم والدين ، أو بين الحكمة والشريعة ، أو بين العقل والنقل . بل كان كثير من علماء الشرع أطباء ورياضيين ، وكيميائيين وفلكيين وغيرهم ، (مثل : ابن رشد ، والفخر الرازي ، والخوارزمي ، وابن النفيس ، وابن خلدون وغيرهم) .

وقد بيَّن الإمام محمد عبده أن أصول الإسلام تتفق كل الاتفاق مع العلم والمدنية ، وأقام على ذلك البراهين الناصعة من نصوص الدين ومن تاريخ المسلمين ، وذلك في كتابه القيم (الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) .

● العمل :

وهو ثمرة العلم ، ولهذا قيل في تراثنا : علم بلا عمل ، كشجر بلا ثمر ، أو سحاب بلا مطر .

وهو أيضًا ثمرة الإيمان الحق ، إذ لا يُتصور إيمان بلا عمل .

ومهما يختلف علماء الكلام في اعتبار العلم جزءًا من حقيقة الإيمان ، أو شرطًا له ، أو أثرًا له ، فما لا ريب فيه أن الإيمان الصادق لا بدَّ أن يثمر عملاً . ولهذا قرن القرآن بين الإيمان والعمل في عشرات من آياته ، ولهذا قال السَّلَف : الإيمان ما وقر في القلب ، وصدّقه العمل[١] .

---

(١) من قول الحسن ، رواه ابن أبي شيبة في الإيمان والرؤيا (٣٠٩٨٨) ، وأحمد في الزهد (٢٦٧) . وصححه ابن القيم في تهذيب السنن (٢/٣٤٦) ، عن الحسن البصري .

والعمل المطلوب هو: بذل الجهد الواعي لتحقيق مقاصد الشارع من الإنسان فوق هذه الأرض.

وهذه المقاصد ـ كما أشار إليها القرآن ـ تتحدد في ثلاث ذكرها الإمام الراغب الأصفهاني في كتابه (الذريعة إلى مكارم الشريعة) وهي:

١- **العبادة**، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات:٥٦).

٢- **الخلافة**، كما قال تعالى: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة:٣٠).. يعني آدم وذريته.

٣- **العمارة**، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (هود:٦١).

وهذه الثلاثة متداخلة ومتلازمة، فالعمارة ـ عند أدائها بقصد ونية ـ جزء من العبادة، وقيام بحق الخلافة. والعبادة بمعناها الواسع تشمل الخلافة والعمارة، ولاخلافة بغير عبادة وعمارة.

والعمل المنشود في الإسلام هو (عمل الصالحات)، والصالحات: تعبير قرآني جامع، يشمل كل ما يصلح به الدين والدنيا، ويصلح به الفرد والمجتمع. فهو يضم العبادات والمعاملات، أو عمل المعاش والمعاد، كما يعبر علماؤنا رحمهم الله.

ولقد بيَّن القرآن أن الله تعالى خلق السماوات والأرض، وخلق الموت والحياة، وجعل ما على الأرض زينة لها، لهدف واضح حدده بقوله سبحانه: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (هود:٧)، (الملك:٢)، وقوله: ﴿ لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (الكهف:٧).

ومعنى هذا: أنَّ الخالق جَلَّ شأنه لا يريد من الناس أي عمل، ولا مجرد العمل الحسن، بل يريد منهم (العمل الأحسن).

فالسباق بينهم ليس بين العمل السيئ والحسن، بل بين العمل الحسن والأحسن.

ولا غرو أن وجدنا من العبارات القرآنية المأنوسة عبارة: (التي هي أحسن)، فالمسلم يجادل ﴿ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل:١٢٥)، ويدفع ﴿ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (المؤمنون:٩٦)، ويستثمر مال اليتيم ﴿ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (الإسراء:٣٤)، ويتبع أحسن ما أنزِل إليه من ربه: ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ (الزمر:٥٥).

فهو يرنو دائمًا إلى ما هو أحسن، وليس إلى مجرد الحسن.

والعمل الاقتصادي بكل فروعه وأنواعه من أفضل القربات إلى الله، إذا صحّت فيه النية، وأُدي بإتقان، والتُزمت فيه حدود الله. وخصوصًا العمل الإنتاجي، من زراعة وصناعة، وحديد وتعدين.

وقد توارث العرب من قديم احتقار العمل اليدوي والحرفي، وكان أحدهم يؤثر أن يذهب إلى الأمير أو شيخ القبيلة، يسأله المعونة، على أن يبذل جهدًا يكفل له عيشًا يلائمه، فبيّن لهم الرسول الكريم ﷺ أنَّ أي عمل لكسب العيش ـ وإن قلّ دخله، وكثر جهده ـ خير وأكرم من سؤال الناس، أعطوه أو منعوه.

يقول عليه الصلاة والسلام: «لأن يأخذ أحدكم حبله على ظهره، فيأتي بحزمة من الحطب فيبيعها، فيكف الله بها وجهه، خير من أن يسأل الناس، أعطوه أو منعوه»[1].

وفي الحث على الاحتراف يقول: «ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده»[2].

وفي الحث على الزرع والغرس يقول: «ما من مسلم يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة، إلا كان له به صدقة»[3].

---

(١) رواه البخاري في الزكاة (١٤٧١)، عن الزبير بن العوام.

(٢) رواه البخاري في البيوع (٢٠٧٢)، عن المقدام بن معدي كرب.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في المزارعة (٢٣٢٠)، ومسلم في المساقاة (١٥٥٣)، عن أنس.

ومن أروع التوجيهات النبوية في بيان قيمة العمل : الحديث الذي يقول : « إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة ، فإن استطاع ألا تقوم (أي الساعة) حتى يغرسها فليغرسها »[1].

والفسيلة : النخلة الصغيرة ، أي ما نسميه (الشتلة) .

ولماذا يغرسها والساعة قائمة ، وهو لن ينتفع بها ، ولا أحد من بعده؟!

إنه دليل على أن العمل مطلوب لذاته ، وأن على المسلم أن يظل عاملاً منتجًا ، حتى تنفد آخر نقطة زيت في سراج الحياة!

إن العمل عبادة وقُرْبة ، أكل الناس من ثمره أو لم يأكلوا . ولو وعى المسلمون هذه التعليمات لفتح الله عليهم بركات من السماء والأرض ، وأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم . وكانت مجتمعاتهم في طليعة مجتمعات العالَم إنتاجًا وثراءً ، ولم يعيشوا كَلاًّ على غيرهم من الأمم ، حتى إنهم لا يكفون أنفسهم من القوت اليومي الذي به عيشهم وحياتهم ، وبلادهم بلاد زراعية ، ولا من السلاح الذي يحتاجون إليه في حماية حرماتهم وأرضهم وعِرضهم ، فلو كفّ الآخرون أيديهم عنهم لهلكوا ماديًّا من الجوع ، وهلكوا معنويًّا من الذل .

● الحرية :

ومن القيم الإنسانية التي عظَّم أمرها الإسلام : الحرية ، التي ترفع عن الإنسان كل ألوان الضغط والقهر والإكراه والإذلال . وتجعله كما أراد الله له : سيدًا في الكون ، عبدًا لله وحده .

وتشمل هذه الحرية : الحرية الدينية ، والحرية الفكرية ، والحرية السياسية ، والحرية المدنية ، وكل الحريات الحقيقية .

---

(١) رواه أحمد (١٢٩٠٢) ، وقال مخرجوه : إسناده صحيح على شرط مسلم . والبخاري في الأدب المفرد (٤٧٩) ، وصححه الضياء في المختارة (٢٧١٣) .

ونعني بالحرية الدينية : حرية الاعتقاد ، وحرية ممارسة الشعائر ، فلا يقبل الإسلام بحال أن يُكْرَه أحدٌ على ترك دين رضيه واعتنقه ، أو يُجبر على اعتناق دين لا يرضاه . ونصوص القرآن الكريم صريحة في ذلك كل الصراحة ، ففي القرآن المكي يقول تعالى : ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس:٩٩)؟ ، وفي القرآن المدني يقول سبحانه : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ﴾ (البقرة:٢٥٦).

ومن دخل في ذمة المسلمين من أصحاب الأديان الأخرى ، فقد غدا يحمل (جنسية دار الإسلام) ، له ما للمسلمين ، وعليه ما عليهم في الجملة ، إلا ما اقتضته طبيعة التميز الديني ، فلا يفرض عليه كل ما يفرض على المسلمين ، ولا يحرم عليه كل ما حرم على المسلمين .

ومن الناس مَن كتب في عصرنا يقول : إن التراث العربي والإسلامي لم يعرف الحرية بالمفهوم الحديث والمعاصر ، الذي نقل إلينا من الغرب ، بعد الثورة الفرنسية . إنما يعرف الحرية بمعنى (عدم الرق) فقط ، فالحر مَن ليس عبدًا ، والحرية مقابل الرق والعبودية .

فنحن حين نؤمن بالحرية ، أو ننادي بالحرية عالة على فرنسا ، فقبلها لم نكن نعرف عنها شيئًا!!

وإني لأعجب أن يقول هذا أناس يزعمون ـ ويُزعم لهم ـ أنهم مثقفون وعلميون ، وباحثون موضوعيون !

ونظرًا لأن بعض الناس قد يغره هذا الكلام المزوق ، وجب علينا أن نضع أمامهم بعض الحقائق تبصرة وتذكرة :

أولاً : لا ننكر أن الأصل والحقيقة اللغوية في معنى الحرية ، هو ما يقابل الرق الذي يعني تحكم الإنسان في آخر وتسلط عليه . والحرية تعني التخلص من هذا التحكم والتسلط ، وفكاك رقبته منه . ولكن ليس هذا هو المعنى الوحيد للكلمة .

لقد اتسعت الكلمة لتشمل تخلص الإنسان من كل تسلط عليه بغير حق ، من سُلطة جائرة ، أو قوة قاهرة .

وفي هذا جاءت كلمة عمر بن الخطاب لواليه على مصر عمرو بن العاص ، وهي كلمة محفورة في ذاكرة التاريخ : متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا[١]؟!

وهي كلمة أصبحت تصدر بها الآن الدساتير ومواثيق حقوق الإنسان .

ويقول عليّ بن أبي طالب في وصيته لابنه : ولاتكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرًّا[٢] .

وقد استعمل كثير من الشعراء كلمة (الحر) بمعنى الإنسان العزيز الكريم ، كقول مَن قال[٣] :

العبد يُقرع بالعصا والحر تكفيه الملامة

وقال الآخر[٤] :

والحر من دَان إنصافًا

وقال غيره في وصف بعض الحِسان العفيفات[٥] :

حور حرائر ما هممن بريبة كظباء مكة صيدهّن حرام

وفي أمثال العرب : تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها[٦] .

وقالوا : الصبر مرّ ، لا يتجرعه إلا حر[٧] .

---

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم (١/١٨٣) ، وحسن المحاضرة للسيوطي (١/١٩٣) .

(٢) أدب الدنيا والدين للماوردي (١/٤١٩) .

(٣) البيت لابن مفزع يهجو عباد بن زياد . الشعر والشعراء لابن قتيبة (١/٧١) .

(٤) البيت لا بن زيدون من قصيدته لولادة بنت المستكفي ، كما في ديوانه (١/٥) .

(٥) المستطرف (٢/٣٥١) ، ونسب في الحماسة البصرية (١/١٥٢) لعروة بن أذينة ، بلفظ : (بيض نواعم ما هممن . . .) .

(٦) مجمع الأمثال للميداني (٦١٩) ، وجمهرة الأمثال للعسكري (٣٥٩) .

(٧) نثر الدرر للآبي (١/٣٠٦) .

ثم إنَّ عدم وجود لفظ أو مصطلح معيّن يدل على مفهوم أو مضمون نعرفه الآن : لا يعني بالضرورة عدم وجود هذا المدلول أو المضمون .

فقد يوجد هذ المضمون أو المحتوى تحت لفظ أو مصطلح آخر ، وقد يوجد منشوراً تحت كلمات أو مطلحات أخرى .

فقد لا يجد الباحث في تراثنا كلمة (المساواة) مستخدمة كما نستخدمها نحن الآن .

ولكنه بأدنى بحث يجد مضمونها مبثوثا منتشراً ، في آيات القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول العظيم ، وفي عبادات الإسلام وشعائره ، من الصلاة والصيام والحج والعمرة ، وفي أحكام الإسلام وعقوباته التي لا تفرِّق بين الشريف والوضيع . وفي مبادئ الإسلام التي تحطم الفوارق بين الأجناس والألوان والطبقات ، وتجعل الناس سواسية كأسنان المشط .

ومثل ذلك : الحرية ، فقد يُعبَّر عنها بالكرامة : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ (الإسراء:٧٠) .

أو بالعزة : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (المنافقون:٨) .

أو بتحريم القهر والنهر : ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ (الضحى:٩-١٠).

أو بتحريم الإرهاب والترويع : « لا يحلُّ لمسلم أن يروِّع مسلمًا »[١] .

أو بتحريم الضرب والتعذيب : « مَن جرَّد ظهر مسلم بغير حقٍّ ، لقي الله وهو عليه غضبان »[٢] . أو بغير ذلك من العبارات والأساليب .

---

(١) رواه أحمد (٢٣٠٦٤) ، وقال مخرجوه : إسناده صحيح . وأبو داود في الأدب (٥٠٠٤) ، والبيهقي في الشهادات (٢٠٩٦٦) ، وصححه الألباني في غاية المرام (٤٤٧) .

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٧٥٣٦) . وقال المنذري في الترغيب (٣٧٠٦) ، والهيثمي في المجمع (١٠٥٢١) : إسناده جيد .

وأكثر من ذلك : أن الإسلام يحرِّض على القتال وإعلان الحرب من أجل تحرير المستضعفين في الأرض من نير الطغاة والمتجبرين . يقول تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ (النساء: ٧٥) .

وإذا لم يقدر الناس على مقاومة الطغيان والاستبداد ، فلا أقل من أن يهاجروا من ديارهم ، ولا يقبلوا على أنفسهم الهوان والبقاء تحت نير الظلم والاستعباد . وقد توعَّد القرآن الكريم بالوعيد الشديد مَن رضي بهذه الحياة المهينة ، واستسلم لها طائعًا ، فلا هو قاوم مع المقاومين ، ولا هو هاجر مع المهاجرين .

يقول الله عَزَّ وجَلَّ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ (النساء: ٩٧-٩٩)[1] .

على أنَّ الذي يعطي الإسلام حقه من الفهم والتدبر ، يجد أن جوهره هو التوحيد ، فهو روح الوجود الإسلامي . والتوحيد هو الأساس العقلي والفلسفي لتحقيق مبدأ الحرية ، بل لتحقيق مبادئ الحرية والإخاء والمساواة جميعًا .

---

(١) وينبغي أن يعلم أن هذه الآيات الكريمة في شأن المسلمين الذين يقيمون في دار الكفر ، وليست في المسلمين الذين يغزوهم الكفار في دار الإسلام ، فالواجب عليهم أن يتشبثوا بأرضهم وديارهم ، وأن يصبروا على الأذى والاضطهاد ، ولا يفرّغوا لهم دار الإسلام ، فيتمكنوا منها ، ويرسخوا فيها ، كما فعل الأسبان بعد طرد المسلمين من الأندلس ، فقد خلصت لهم ، وضاعت على المسلمين ، وكما يريد الصرب أن يفعلوا اليوم بأهل البوسنة والهرسك ، وكما تريد إسرائيل أن تفعل بالفلسطينيين ، فلا يجوز لهم ترك الأرض لهم ، فهي جزء من دار الإسلام ، وإن حكمها الكفار ، كما هو مذهب أبي حنيفة ، وهو الصحيح ، ما دامت متصلة بسائر دار الإسلام .

وكلمة التوحيد ـ كلمة (لا إلَه إلا الله) ـ تعني إسقاط المتألهين والمتجبرين في الأرض ، وإنزالهم من عروش الربوبية المزيفة ، والاستعلاء على الخلق ، إلى ساحة المشاركة للناس جميعًا في العبودية لله ، والبنوة لآدم .

ولهذا كانت رسائل النبي ﷺ إلى قيصر وأمراء النصارى وملوكهم في مصر والحبشة وغيرها مختومة بهذا النداء : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران:٦٤) .

إن أعظم ما دمر حرية البَشر ، وأتى على بنيانها من القواعد ، اتخاذ بعض الناس بعضًا أربابًا من دون الله . ولكي يسترد الناس حريتهم وكرامتهم يجب تحطيم هؤلاء الأرباب الأدعياء ، والآلهة المزوَّرين ، خصوصًا في أنفس الذين توهموهم أربابًا حقًّا ، وهم مخلوقون مثلهم ، لا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا .

ولقد وعى مشركو العرب هذه الحقيقة منذ دعا النبي ﷺ من أول يوم إلى التوحيد ، وشهادة أنْ لا إلَه إلا الله ، وعلموا أن وراء هذه الكلمة انقلابًا في الحياة الاجتماعية والسياسية ، وأنها تؤذن بميلاد جديد لبني الإنسان ، ولا سيما الفقراء والمستضعفين والمسحوقين ، فلا غرو أن وقفوا في وجهها ، وجنَّدوا كل قواهم لحرب كل مَن آمن بها ، واستجاب لندائها .

• الشورى :

ومن القيم الإنسانية والاجتماعية التي جاء بها الإسلام : الشورى .

ومعنى الشورى : ألا ينفرد الإنسان بالرأي وحده في الأمور التي تحتاج إلى مشاركة عقل آخر أو أكثر ، فرأي الاثنين أو الجماعة أدنى إلى إدراك الصواب من رأي الواحد .

كما أن التشاور في الأمر يفتح مغاليقه ، ويتيح النظر إليه من مختلف زواياه ، بمقتضى اختلاف اهتمامات الأفراد ، واختلاف مداركهم وثقافاتهم ، وبهذا يكون الحكم على الأمر مبنيًا على تصور شامل ، ودراسة مستوعبة .

فالإنسان بالشورى يضيف إلى عقله عقول الآخرين وإلى علمه علوم الآخرين ، وفي هذا يقول الشاعر العربي :

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن ... برأي نصيح أو نصيحة حازم
ولا تحسب الشورى عليك غضاضة ... فإن الخوافي قوة للقوادم

وقد دعا الإسلام إلى الشورى في حياة الفرد ، وفي حياة الأسرة ، وفي حياة المجتمع والدولة .

• الشورى في حياة الفرد :

ففي حياة الفرد يربي الإسلام المسلم إذا أراد أن يقدم على أمر من الأمور المهمة ، التي تختلف فيها الوجهات ، وتتعارض الآراء والرغبات ، ويتردد فيها المرء بين الإقدام والإحجام ، أن يستعين بأمرين يساعدانه على اتخاذ القرار الأصوب .

أحد هذين الأمرين : **رباني** ، وهو استخارة الله تعالى ، وهي صلاة ركعتين يعقبها دعاء ، مضمونه أن يختار الله له خير الأمرين في دينه ودنياه ، ومعاشه ومعاده .

والثاني : **إنساني** ، وهو استشارة مَن يثق برأيه وخبرته ونصحه وإخلاصه .

وبهذا يجمع بين استخارة الخالق ، واستشارة الخلق .

وقد حفظ المسلمون من تراثهم : لا خاب مَن استخار ، ولا ندم مَن استشار .

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم ، يستشيرون النبي ﷺ في كثير من أمورهم الخاصة ، فيشير عليهم بما يراه صوابًا أو أصوب أو أفضل . كما رأينا حين استشارته فاطمة بنت قيس في أمر زواجها ، وقد أبدى الرغبة فيها رجلان : معاوية

وأبو جهم . فقال لها : «أما معاوية فصعلوك لا مال له ، وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه!»[١] . أي يضرب النساء . واقترح عليها أن تتزوج أسامة بن زيد .

وكان الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام يستشير بعض أصحابه في أموره الخاصة كذلك .

فقد رأيناه في أزمة (حديث الإفك) يستشير عليّ بن أبي طالب ، ويسأل أسامة ابن زيد[٢] .

● الشورى في حياة الأسرة :

وفي حياة الأسرة يدعو الإسلام إلى أن تقوم الحياة الأسرية على أساس من التشاور والتراضي . وذلك منذ بداية تكوين الأسرة .

ولهذا رفضت نصوص الشريعة أن يستبد الأب بتزويج ابنته ـ ولو كانت بكراً ـ دون أن يأخذ رأيها .

وأوجب التوجيه النبوي أن تُستأذن البكر ، وإن كانت تستحيي ، فجعل إذنها صماتها . فإن سكوتها عند عرض الأمر عليها دليل على الرضا والقبول[٣] .

وقد رد النبي ﷺ بعض عقود الزواج التي تمت بغير إرادة البنت ، لأن الشرع لم يُجِز لأحد أن يتصرف في مالها وملكها بغير إذنها ، فكيف بمصيرها ومستقبل حياتها[٤]؟!

بل رغَّبت السُّنَّة آباء البنات أن يشاوروا أمهات بناتهن في أمر زواجهن ، أي يشاور الرجل زوجته عند تزويج ابنتهما ، وفي هذا جاء الحديث الذي رواه الإمام أحمد : «آمروا النساء في بناتهن»[٥] .

---

(١) رواه مسلم في الطلاق (١٤٨٠) ، عن فاطمة بنت قيس .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري في الشهادات (٢٦٦١)، ومسلم في التوبة (٢٧٧٠)، عن عائشة.

(٣) رواه البخاري في الحيل (٦٩٧١) ، عن عائشة ، ومسلم في الحج (١٤٢١) ، عن ابن عباس .

(٤) رواه البخاري في الإكراه (٦٩٤٥) ، عن خنساء بنت خذام .

(٥) رواه أحمد (٤٩٠٥) وقال مخرجوه : حديث حسن . وأبو داود في النكاح (٢٠٩٥) .

وذلك أن الأم أعلم بابنتها من الأب ، فهي باعتبارها أنثى تعرف اتجاهها وعواطفها ، والبنت تبوح لأمها عن أسرارها ما لا تجرؤ أن تبوح به لوالدها .

وبعد بناء الأسرة ينبغي للزوجين أن يتفاهما ويتشاورا فيما يهم الحياة المشتركة بينهما ، وفيما يهم كل واحد منهما على حدة ، وفيما يهم حياة ذريتهما ومستقبلها .

ولا يجوز أن يُستهان برأي المرأة هنا ، كما يشيع عند بعض الناس ، فكم من امرأة كان رأيها خيراً وبركة على أهلها وقومها .

وما كان أحصف رأي خديجة وموقفها في أول ساعات الوحي ، ودورها في تثبيت فؤاد النبي ﷺ ، والذهاب معه إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ، ليطمئنه ويبشره[1] .

وكذلك رأي أم سلمة يوم الحديبية[2] . وسيأتي الحديث عنه .

ومن الروائع القرآنية : التنبيهُ على ضرورة التشاور والتراضي بين الزوجين فيما يتصل برضاع الأولاد وفطامهم ، ولو بعد الانفصال بينهما . يقول تعالى : ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ . . . . ﴾ ، إلى أن قال : ﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ (البقرة:٢٣٣) .

● الشورى في حياة المجتمع والدولة :

أما الشورى في حياة المجتمع والدولة المسلمة ، فقد جعلها القرآن من المكوِّنات المهمة للجماعة المسلمة ، وذلك في القرآن المكي الذي يرسي القواعد ، ويضع الأسس للحياة الإسلامية . فقد ذكر الشورى في أوصاف المؤمنين ، مقرونة بمجموعة من الصفات الأساسية التي لا يتم إسلام ولا إيمان إلا بها . وهي : الاستجابة لله تعالى ، وإقام الصلاة ، والإنفاق مما رزق الله ، وهذا ما ذكر في السورة

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في التفسير (٤٩٥٣) ، ومسلم في الإيمان (١٦٠) ، عن عائشة .
(٢) رواه البخاري في الشروط (٢٧٣١) ، عن المسور بن مخرمة .

التي تحمل اسم (الشورى) يقول تعالى : ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ، إلى أن قال : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (الشورى:٣٦-٣٨) .

والمراد بقوله (وأمرهم) : الأمر العام الذي يهم جماعتهم ، ويؤثر في حياتهم المشتركة .

وهو (الأمر) الذي أمر الله تعالى رسوله بالمشاورة فيه . فقد قال تعالى في سورة آل عمران من القرآن المدني : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ (آل عمران:١٥٩) .

وقد جاء هذا الأمر من الله ورسوله بعد غزوة (أحد) ، التي شاور النبي فيها أصحابه ، ونزل عن رأيه إلى رأي أكثريتهم ، وكانت النتيجة ما أصاب المسلمين من قرح ، وما اتخذه الله من شهداء : سبعين من خيار الصحابة ، منهم حمزة ومصعب وسعد بن الربيع وغيرهم .

ومع هذا أمر الله رسوله بالمشاورة لهم ، ومعناه : استمر على مشاورتهم ، ففيها خير وبركة ، وإن جاءت النتيجة في إحدى المرات على غير ما تحب ، فالعبرة بالعاقبة .

وقد كان النبي ﷺ أكثر الناس مشاورة لأصحابه : شاورهم في غزوة (بدر) ، قبل القتال ، وفي أثنائه ، وبعده . ولم يدخل المعركة إلا بعد أن اطمأن إلى رضا جمهورهم .

وشاورهم في (أحد) ، فنزل عن رأيه إلى رأي الأكثرية التي رأت الخروج إلى القوم ، لا القتال داخل المدينة .

وشاورهم في (الخندق) ، وهمّ أن يصالح (غطفان) على شيء من ثمار المدينة ، ليعزلهم عن قريش ، وأبى ممثلو الأنصار ذلك ، فوقف عند رأيهم .

وفي (الحديبية) شاور أم سلمة في امتناع أصحابه عن التحلل من إحرامهم بعد الصلح ، فقد عزّ عليهم ذلك بعد نِيّة العمرة . فأشارت عليه أم سلمة أن يخرج

إليهم ، ويتحلل من إحرامه أمامهم دون أن يتكلم ، فما أن رأوه فعل ذلك ، حتى بادروا إلى الاقتداء به .

والإسلام كما يأمر الحاكم أن يستشير ، يأمر الأمة أن تنصح له ، كما جاء في الحديث الصحيح : « الدين النصيحة ... لله ، ولرسوله ، ولكتابه ، ولأئمة المسلمين ، وعامتهم »[١] .

وفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة عامة ، تشمل الحكام والمحكومين كافة ، كذلك فريضة التواصي بالحق ، والتواصي بالصبر ، التي لا نجاة للإنسان من خسران الدنيا والآخرة إلا بها . فليس في المسلمين أحد أكبر من أن يُوصَى ويُنصَح ، ويُؤمَر ويُنهَى . وليس فيهم أحد أصغر من أن يوصي وينصح ، ويأمر وينهى . وقد كان النبي ﷺ يشار عليه بالرأي مخالفًا لرأيه فيأخذ به ، ويدع رأيه الشخصي .

وقد بعث أبا هريرة يبشر الناس بأن : « مَن قال (لا إلَه إلا الله) دخل الجنة » . فخشي عمر أن يفهمها الناس فهمًا مغلوطًا ، ويفصلوا الكلمة عن العمل ، ولذا أوقف أبا هريرة ، وبيّن للرسول ﷺ خوفه من أن يتكل الناس على ذلك قائلاً : فخلهم يعملون ، فقال الرسول ﷺ : « فخلهم يعملون »[٢] .

وقال أبو بكر في خطابه السياسي الأول بعد توليه الخلافة ، يبيِّن منهجه في الحكم : إن رأيتموني على حق فأعينوني ، وإن رأيتموني على باطل فسددوني . أطيعوني ما أطعتُ الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم[٣] .

وقال عمر : أيها الناس ، مَن رأى منكم فيّ اعوجاجًا فليقومني .

فقال له أحدهم : لو رأينا فيك اعوجاجًا لقوّمناه بحد سيوفنا !

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (٥٥) ، عن تميم الداري .

(٢) رواه مسلم في الإيمان (٣١) ، عن أبي هريرة .

(٣) مصنف عبد الرزاق في باب لا طاعة في معصية (٢٠٧٠٢) .

فقال عمر : الحمد لله الذي جعل في رعية عمر مَنْ يُقوِّم عمر بحد سيفه[1]!

وقال له بعضهم يومًا : اتقِّ الله يا عمر! فأنكر عليه بعض مَن عنده أن يقول ذلك لأمير المؤمنين ، فقال عمر : دعه . لا خير فيكم إذا لم تقولوها ، ولا خير فينا إذا لم نسمعها[2] .

بل إنَّ الرسول ﷺ يشرع المعارضة المسلحة للأمير الفاجر بشرطين :

الأول : الانحراف البيِّن عن منهج الإسلام في عقيدته أو شريعته ، وهو ما أطلق عليه الحديث النبوي : (الكفر البواح) .

فقد أوصى الرسول ﷺ مَن بايعه من أصحابه أن يصبروا على أمرائهم ، وإن استأثروا ببعض المكاسب الدنيوية دونهم ، قال : « إلا أن تروا كفرًا بواحًا عندكم فيه من الله برهان »[3] .

والثاني : أن تكون هناك قدرة على إزالة المنكر ، دون أن يترتب على إزالته منكر أكبر منه . وإلا وجب تحمل المنكر الأدنى مخافة وقوع المنكر الأعلى . بناء على قاعدة ارتكاب أخف الضررين ، وأهون الشرين .

وعند هذا الخوف تنتقل المعارضة من القتال باليد ، إلى السياسة باللسان والقلم ، ثم إلى الإنكار بالقلب ، وذلك أضعف الإيمان .

وفي هذا جاء حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ : « ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي ، إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب ، يأخذون بسُنَّته ، ويقتدون بأمره ، ثم إنها يخلف من بعدهم خلوف ، يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون . فمَن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومَن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومَن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل »[4] .

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في الزهد (٣٥٦٢٩) .

(٢) محض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (٦٠١/٢) .

(٣) متفق عليه : رواه البخاري في الفتن (٧٠٥٦) ، ومسلم في الإمارة (١٧٠٩) ، عن عبادة ابن الصامت .

(٤) رواه مسلم في الإيمان (٥٠) ، عن ابن مسعود .

والقرآن الكريم ينقل لنا صورة طيبة عن الحكم الذي يقوم على الشورى، ممثلاً في ملكة سبأ التي فاجأها كتاب سليمان عليه السلام يحمله الهدهد، فجمعت قومها وقالت: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ .... ﴾ الآيات (النمل ٣٢-٣٥).

وقد انتهى هذا السلوك الشوري الحكيم بالملكة الرشيدة إلى أن أسلمت مع سليمان لله رب العالَمين. فنجت ونجا معها قومها من حرب خاسرة، وكسبت بذلك الدنيا والآخرة.

وينقل القرآن صورة أخرى مظلمة عن الحكم الذي يقوم على التأله والتسلط، مثل حكم فرعون الذي قال للناس ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾(النازعات ٢٤) ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى ﴾ (القصص ٣٨)، والذي لا يستشير في الأمور الهامة إلا بطانته الخاصة، كما رأينا ذلك في قصة فرعون مع موسى، حين حاور فرعون فأفحمه، فهدده بالسجن، فقال موسى: ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ (الشعراء ٣٠-٣٥)؟

فهذه ليست استشارة حقيقية، لأنها تخص (الملأ حوله) فقط، ثم هي استشارة موجهة، فهو لا يأخذ رأيهم في شأن موسى، وماذا تكون رسالته، وما حقيقة أمره؟ بل حكم عليه قبل أن يسألهم الرأي: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ ﴾.

وقد بيّن القرآن حقيقة حكم فرعون، وموقفه من رعيته حين قال: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (القصص ٤).

فهذا (العلو) في الأرض هو ما نعبر عنه في لغة السياسة المعاصرة بكلمة (الطغيان) .

وقد كرر القرآن ذلك في وصف فرعون : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ (الدخان ٣١) .

ولم يكن علو فرعون وطغيانه على بني إسرائيل وحدهم ، بل على المصريين أيضًا ، إذا خطر لأحدهم أو لفئة منهم أن يخرجوا عن خطه ، ويتمردوا على ربوبيته .

وهذا ما تجلى واضحًا في موقفه من السحرة الذين جلبهم من كل صوب لينصروه على موسى ، فخذله الله بهم ، حين آمنوا برب هارون وموسى ، بعد أن تبين لهم الحق من الباطل .

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾ (طه ٧١) .

وانظر إلى قوله : ﴿ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ إنه يريد أن يحجر على عقول الناس وقلوبهم ، فلا يجوز لعقل أن يقتنع بشيء ، ولا لقلب أن يؤمن بأمر ، إلا بإذنه وبعد تصريح منه!!

لقد ذم القرآن فرعون ، وذم القوى الدنسة المتحالفة معه ، مثل (قارون) الذي يمثل الرأسمالية البشعة الجشعة ، التي لا ترى لأحد عليها حقًّا فيما تملك من مال. كما جسدها قارون بقوله : ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ (القصص ٧٨) .

ومثل هامان الذي يمثل السياسيين النفعيين الذين يضعون قدراتهم الذهنية والتنفيذية في خدمة الطاغية الأكبر . فهو عقله المفكر ، وساعده المنفذ !

كما شمل القرآن بالذم أعوان الطغاة من الجنود الذين يعتبرون أدوات في أيديهم ، يستخدمونها لجلد الشعوب وقهرها ، ولهذا قال القرآن : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴾ (القصص ٨) .

ويقول عن فرعون : ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (القصص ٤٠) . وكلمة (الجنود) تشمل كل أعوان الطاغية من عسكريين ومدنيين .

والقرآن يحارب الطغيان والاستبداد من عدة نواح :

من ناحية الحملة على الطغاة والمتجبرين في الأرض : ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ (غافر ٣٥) .

﴿ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ (إبراهيم ١٥) .

ومن ناحيـة الحملة على الأعـوان المباشـريـن مـن كبار مثـل هامـان وقـارون ، أو صغار مثل جنود فرعون .

ومن ناحية ثالثـة : الحمـلـة عـلـى الشـعـوب الـتي تسـلـم قيادهـا للطغـاة ، دون أن تسألهم يومًا : لِمَ؟ أو كيف؟ بَلْهَ أن تقول : لا ، بملء فِيها !

لقد ذم القرآن قوم نوح على لسانه بقوله : ﴿ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (نوح ٢١) .

وذم عادًا قوم هود بقوله : ﴿ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝٥٩ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ (هود ٥٩-٦٠) .

وذم قوم فرعون بقوله : ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ (الزخرف ٥٤) .

وعرض القرآن لنا صوراً جمّة من مشاهد الآخرة ، وفيهـا يـتلاوم السـادة الكـبراء المضِلون ، وأتباعهم المضلَّلون ، ويتبرأ بعضهم من بعض ، ويلعن بعضـهم بعضًـا ، ويحاول كل فريق أن يُلقي بالتبعة على الآخر . ولكن الله يحكم على الجميع بأنهم من أهل النار .

﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ۝٦٧ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ (الأحزاب ٦٧-٦٨) .

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ (البقرة ١٦٦-١٦٧) .

إن أساس قبول القيادة السياسية للأمة في الإسلام هو: الرضا والبيعة الاختيارية.

فمَن رضيه المسلمون إمامًا: أي أميرًا ورئيسًا لهم، وبايعوه على ذلك، فهو الولي الشرعي الذي تجب طاعته في المعروف. وتجب المناصحة له بالحق، والمعاونة له على كل خير.

والإسلام لا يحب أن يؤم رجلٌ الناسَ في صلاة الجماعة وهم له كارهون، فكيف يقبل أن يقود رجل الأمة كلها في شؤونها العامة، وهي له كارهة، وبه ضائقة، وعليه ساخطة؟

جاء في الحديث الشريف: «ثلاثة لا تُرفع صلاتهم فوق رؤوسهم شِبرًا: رجل أمَّ قومًا وهم له كارهون، وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط، وأخوان متصارمان»[1].

● العدل:

ومن القيم الإنسانية الأساسية التي جاء بها الإسلام، وجعلها من مقومات الحياة الفردية والأسرية والاجتماعية والسياسية: (العدل).

حتى جعل القرآن إقامة القِسْط ـ أي العدل ـ بين الناس هو هدف الرسالات السماوية كلها. يقول تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ (الحديد ٢٥) .

وليس ثمة تنويه بقيمة القِسط أو العدل أعظم، من أن يكون هو المقصود الأول من إرسال الله تعالى رسله، وإنزاله كتبه.

---

(١) رواه ابن ماجه في إقامة الصلاة (٩٧١) واللفظ له. والطبراني في الكبير (١٢٢٧٥). وصححه ابن حبان (١٧٥٧)، والضياء في المختارة (٤٠١).

فبالعدل أنزلت الكتب ، وبعثت الرسل ، وبالعدل قامت السماوات والأرض .

والمراد بالعدل : أن يُعطَى كل ذي حق حقه ، سواء أكان ذو الحق فردًا أم جماعة ، أم شيئًا من الأشياء ، أم معنى من المعاني ، بلا طغيان ولا إخسار ، فلا يبخس حقه ، ولا يجور على حق غيره .

قال تعالى : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِي ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴾ (الرحمن ٧-٩) .

والإسلام يأمر المسلم بالعدل مع النفس : بأن يوازن بين حق نفسه ، وحق ربه ، وحقوق غيره .

كما قال عليه الصلاة والسلام لعبد الله بن عمرو ، حين جار على حق نفسه بمداومة صيام النهار وقيام الليل : « إنَّ لبدنك عليك حقًّا ، وإن لعينك عليك حقًّا ، وإن لأهلك عليك حقًّا ، وإن لزَوْرك عليك حقًّا »[١] .

ويأمر الإسلام بالعدل مع الأسرة : مع الزوجة ، أو الزوجات ، مع الأبناء والبنات .

يقول تعالى : ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً ﴾ (النساء ٣) .

ويقول الرسول ﷺ : « اتقوا الله واعدلوا في أولادكم »[٢] ، وحين أراد بشير ابن سعد الأنصاري أن يشهده عليه الصلاة والسلام على هبة معينة آثر بها بعض أولاده ، سأله النبي ﷺ : « أكل أولادك أعطيتهم مثل هذا؟ » . قال : لا . قال : « أشْهِدْ على ذلك غيري ، فإني لا أشهد على جَوْر »[٣] .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري (١٩٧٥) ، ومسلم (١١٥٩) ، كلاهما في الصيام ، عن عبد الله ابن عمرو .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري (٢٥٨٧) ، ومسلم (١٦٢٣) ، كلاهما في الهبات ، عن النعمان ابن بشير .

(٣) رواه مسلم في الهبات (١٦٢٣) ، عن النعمان بن بشير .

ويأمر الإسلام بالعدل مع الناس كل الناس : عدل المسلم مع مَن يحب ، وعدل المسلم مع مَن يكره ، لا تدفعه عاطفة الحب إلى المحاباة بالباطل ، ولا تمنعه عاطفة الكره من الإنصاف ، وإعطاء الحقِّ لمَن يستحقُّ .

يقول تعالى في العدل مع مَن نحب : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ (النساء ١٣٥) .

ويقول سبحانه في العدل مع مَن نعادي : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ (المائدة ٨) .

وكم حفل التاريخ السياسي والقضائي في الإسلام بمواقف رائعة ، حكم فيها لغير المسلمين ضد المسلمين ، وللرعية ضد الرعاة .

يأمر الإسلام بالعدل في القول ، فلا يخرجه الغضب عن قول الحق ، ولا يدخله الرضا في قول الباطل . يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ (الأنعام ١٥٢) .

ويأمر بالعدل في الشهادة ، فلا يشهد إلا بما علم ، لا يزيد ولا ينقص ، ولا يحرف ولا يبدل . قال تعالى : ﴿ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ﴾ (الطلاق ٢) ، ﴿ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ (المائدة ٨) .

ويأمر الإسلام بالعدل في الحكم . كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ﴾ (النساء ٥٨) .

وقد استفاضت الأحاديث في فضل (الإمام العادل) فهو أحد السبعة الذين يظلهم الله في ظله ، يوم لا ظل إلا ظله[١]، وأحد الثلاثة الذين لا تُرد لهم دعوة[٢].

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في الأذان (٦٦٠) ، ومسلم في الكسوف (١٠٣١) ، عن أبي هريرة .

(٢) رواه أحمد (٨٠٤٣) وقال مخرجوه : صحيح بطرقه وشواهده . والترمذي في الدعوات (٣٥٩٨) ، وابن ماجه في الصيام (١٧٥٢) . وصححه ابن خزيمة (١٩٠١) ، وابن حبان (٣٤٢٨) ، وابن الملقن في البدر المنير (٥/١٥٢) .

وبقدر ما أمر الإسلام بالعدل وحثّ عليه ، حرّم الظلم أشد التحريم ، وقاومه أشد المقاومة ، سواء ظلم النفس أو ظلم الغير ، وبخاصة ظلم الأقوياء للضعفاء ، وظلم الأغنياء للفقراء ، وظلم الحكام للمحكومين . وكلما اشتد ضعف الإنسان كان ظلمه أشد إثمًا .

يقول الرسول ﷺ لمعاذ :« واتقِ دعوة المظلوم ، فليس بينها وبين الله حجاب »[1].

وقال : « دعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ، ويفتح لها أبواب السماء ، ويقول الرب : وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين »[2].

ومن أبرز أنواع العدل ، الذي شدّد فيه الإسلام ما سمي في عصرنا : العدل الاجتماعي . ويراد به : العدل في توزيع الثروة ، وإتاحة الفرصة المتكافئة لأبناء الأمة الواحدة ، وإعطاء العاملين ثمرة أعمالهم وجهودهم ، دون أن يسرقها القادرون وذوو النفوذ منهم ، وتقريب الفوارق الشاسعة بين الأفراد والفئات بعضها وبعض ، بالحد من طغيان الأغنياء ، والعمل على رفع مستوى الفقراء .

وهذا الجانب سبق فيه الإسلام سبقًا بعيدًا ، حتى إن القرآن منذ عهده المكي لم يغفل هذا الأمر الحيوي ، بل أعطاه عناية بالغة ، ومساحة واسعة .

فمَن لم يُطعم المسكين كان من أهل سقر المعذَّبين في النار ، ﴿ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴾ (المدثر ٤٣-٤٤) .

ولا يكفي أن تطعم المسكين ، بل يجب أن تحمل نصيبك في الدعوة إلى إطعامه ، والحض على رعاية ضروراته وحاجاته : ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ (الماعون ١-٣) .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في الزكاة (١٤٩٦)، ومسلم في الإيمان (١٩)، عن ابن عباس .

(٢) رواه أحمد (٨٠٤٣) ، وقال مخرجوه : صحيح بطرقه وشواهده . والترمذي في الدعوات (٣٥٩٨) وحسنه ، وابن ماجه في الصيام (١٧٥٢) ، عن أبي هريرة . وصححه ابن حبان (٨٧٤) ، وابن خزيمة (١٩٠) .

وإهمال هذا الحض يضعه القرآن جنبًا إلى جنب مع الكفر بالله تعالى ، الموجب للعذاب الأليم ، وصليّ الجحيم : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ (الحاقة ٣٠-٣٤) .

والمجتمع الجاهلي مجتمع مذموم مسخوط عليه من الله تعالى ، لضياع الفئات الضعيفة فيه ، وانشغال الأقوياء ، بأكل التراث وحب المال : ﴿ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ (الفجر ١٧-٢٠).

لقد اهتم الإسلام بالطبقات الضعيفة في المجتمع ، فشرع لهم من الأحكام والوسائل ، ما يكفل لهم العمل الملائم لكل عاطل ، والأجر العادل لكل عامل ، والطعام الكافي لكل جائع ، والعلاج الناجع لكل مريض ، والكساء المناسب لكل عريان . والكفاية التامة لكل محتاج . وتشمل هذه الكفاية : المأكل والملبس والمسكن ، وكل ما لا بدَّ له منه ، على ما يليق بحاله ، من غير إسراف ولا تقتير ، لنفس الشخص ولمن يعوله . وهذا تعريف الإمام النووي في (المجموع)[1] .

وفرض لذلك الإسلام حقوقًا مالية في أموال الأغنياء ، أولها وأعظمها الزكاة . التي اعتبرها الإسلام ثالث أركانه ، يؤديها المسلم طوعًا واحتسابًا ، وإلا أخذت منه كرهًا ، ولو أن طائفة ذات شَوْكة امتنعت من أدائها قوتلت عليها بحد السيوف .

تؤخذ الزكاة من الأغنياء لتُرَد على الفقراء . فهي من الأمة وإليها .

والأرجح أن يُعطَى الفقير من الزكاة كفاية العمر الغالب لأمثاله ، متى اتسعت حصيلة الزكاة لذلك . وبذلك يصبح في العام القادم يدًا معطية لا آخذة ، عليا لا سفلى .

---

(١) المجموع (١٩١/٦) .

وقد أُلِّفت كتب في هذا الموضوع ، ينبغي أن تُراجَع[1] . وفي كتابنا (الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي) خطوط عريضة مركزة لمقومات العدل الاجتماعي في الإسلام ، يحسن الرجوع إليها .

● الإخاء :

ومن القيم الإنسانية الاجتماعية التي دعا إليها الإسلام : الإخاء ـ أو الأخوّة ـ ومعناه : أن يعيش الناس في المجتمع متحابين مترابطين متناصرين ، يجمعهم شعور أبناء الأسرة الواحدة ، التي يحب بعضها بعضًا ، ويشد بعضها أزر بعض ، يحس كل منها أن قوة أخيه قوة له ، وأن ضعفه ضعف له ، وأنه قليل بنفسه كثير بإخوانه .

ولأهمية هذه القيمة في بناء المجتمع المسلم سنفصِّل فيها بعض التفصيل .

والقرآن يجعل الإخاء في المجتمع المؤمن صنو الإيمان ، ولا ينفصل عنه ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (الحجرات ١٠) .

ويجعل القرآن الأخوّة نعمة من أعظم النعم ، فيقول : ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾

(آل عمران ١٠٣) .

ويقول في سورة أخرى ممتنًا على رسوله الكريم : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال ٦٢-٦٣) .

---

(١) من ذلك : كتب الشيخ محمد الغزالي الأولي : (الإسلام والأوضاع الاقتصادية) ، و(الإسلام والمناهج الاشتراكية) ، و(الإسلام المفترى عليه) ، وكتاب الشهيد سيد قطب : (العدالة الاجتماعية في الإسلام) ، وكتاب المرحوم مصطفى السباعي : (اشتراكية الإسلام) ، وكتابنا (فقه الزكاة) ، و(مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام) .

ويقول النبي ﷺ: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يُسْلِمه»[(١)].

«لا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تناجشوا ... وكونوا عباد الله إخوانًا»[(٢)].

وقد ذكرنا من قبل ما روى الإمام أحمد من حديث زيد بن أرقم: أن النبي ﷺ كان يقول دبر كل صلاة:

«اللَّهم ربنا ورب كل شيء ومليكه، أنا شهيد أنك الله وحدك لا شريك لك.

اللَّهم ربنا ورب كل شيء ومليكه، أنا شهيد أنّ محمدًا عبدك ورسولك.

اللَّهم ربنا ورب كل شيء ومليكه، أنا شهيد أنّ العباد كلهم إخوة».

فجعل إقرار مبدأ (الأخوة) بعد الشهادة لله تعالى بالوحدانية، ولمحمد ﷺ بالعبودية والرسالة.

وقوله: «أنَّ العباد كلهم إخوة»، يحتمل معنيين، كلاهما صحيح:

الأول: أن العباد هنا هم البَشر كافة، فهم أخوة بعضهم لبعض، بحكم البنوة لآدم، والعبودية لله سبحانه. وهذه أخوة إنسانية عامة.

وقد وصف الله تعالى عددًا من الرسل في القرآن بأنهم إخوة لأقوامهم رغم كفرهم برسالتهم، لاشتراكهم معهم في الجنس والأصل، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ (الأعراف ٦٥)، ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ﴾ (الأعراف ٧٣)، ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ (الأعراف ٨٥).

الثاني: أنّ العباد هنا هم المسلمون خاصة، بحكم اشتراكهم في مِلَّة واحدة، تضمهم عقيدة واحدة هي التوحيد، وقِبْلة واحدة هي الكعبة البيت الحرام، وكتاب واحد هو القرآن، ورسول واحد هو محمد عليه الصلاة والسلام، ومنهج واحد، هو شريعة الإسلام.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في المظالم (٢٤٤٢)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٠)، عن ابن عمر.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠٦٦)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٦٣)، عن أبي هريرة.

وهذه أخوة دينية خاصة ، لا تنافي الأولى ، إذ لا تنافي بين الخاص والعام .

كل ما في الأمر أن لهذه الأخوة حقوقًا أكثر ، بمقتضى وحدة العقيدة والشريعة ، والفكر والسلوك .

● المحبة ومراتبها :

ومن العناصر الأساسية لهذه الأخوة : المحبة ، وأدنى درجات المحبة سلامة الصدور ، من الحسد والبغضاء والأحقاد ، وأسباب العداوة والشحناء .

والقرآن يعتبر العداوة والبغضاء عقوبة قدرية يعاقب الله بها مَن يكفرون برسالاته ، وينحرفون عن آياته ، كما قال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴾ (المائدة ١٤) .

ويتحدث القرآن عن الخمر والميسر وهما من الكبائر الموبقة في نظر الإسلام ، فيجعل العِلَّة الأولى في تحريمها ، الجديرة بالنص عليها ، هي إيقاع العداوة والبغضاء في المجتمع ، رغم ما لهما من مضار ومساوئ أخرى لا تخفى ، فيقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ (المائدة ٩١) .

وقد جاء في الحديث تسمية هذه الآفات : « داء الأمم » .

كما أن الحديث سماها : الحالقة ، حالقة الدين لا حالقة الشَعر ، وذلك لخطرها على الجماعة وتماسكها المادي والمعنوي . وفي هذا يقول عليه الصلاة والسلام :

« دبَّ إليكم داء الأمم من قبلكم : الحسد والبغضاء . والبغضاء هي الحالقة ، لا أقول : تحلق الشَّعر ، ولكن تحلق الدين »(١) .

---

(١) رواه أحمد (١٤٣٠)، والترمذي في صفة القيامة (٢٥١٠)، والضياء في المختارة (٨٨٩)، عن الزبير بن العوام .

«ألا أدلكم على أفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة؟ إصلاح ذات البـيْن، فإن فساد ذات البَيْن هي الحالقة»[1].

«تُفتح أبواب الجنة يوم الاثنين والخميس، فيُغفر لكل عبد لا يُشرِك بالله شيئًا، إلا رجل كان بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: أنظروا هذين حتى يصطلحا، انظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا»[2].

«لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث: يلتقيان، فيُعرض هذا، ويُعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام»[3].

«ثلاثة لا ترتفع صلاتهم فوق رؤوسهم شِبرًا: رجل أمَّ قومًا وهم له كارهون، وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط، وأخَوان متصارمان»[4] أي متقاطعان.

إن جو البغضاء والشحناء جو عفن كريه، تروج فيه كل بضائع الشيطان من سوء الظن، والتجسس، والغيبة والنميمة، وقول الزور، والسب واللعن، وقد ينتهي إلى أن يقاتل الأخوة بعضهم بعضًا. وهذا هو الخطر، الذي حذّر منه النبي الكريم ﷺ، واعتبره من أثر الجاهلية، وقال: «لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض»[5].

«سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»[6].

---

(١) رواه أحمد (٢٧٥٠٨)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات. والترمذي في صفة القيامة (٢٥٠٩) وقال: حسن صحيح. وأبو داود في الأدب (٤٩١٩). وصححه ابن حبان (٥٠٩٢) عن أبي الدرداء.

(٢) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٥)، عن أبي هريرة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠٧٧)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٦٠) عن أبي أيوب.

(٤) رواه ابن ماجه في إقامة الصلاة (٩٧١) واللفظ له. والطبراني في الكبير (١٢٢٧٥). وصححه ابن حبان (١٧٥٧)، والضياء في المختارة (٤٠١).

(٥) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (١٢١)، ومسلم في الإيمان (٦٥)، عن جرير.

(٦) متفق عليه: رواه البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤)، كلاهما في الإيمان، عن ابن مسعود.

لهذا كان إصلاح ذات البَيْن من أفضل الأعمال والقربات إلى الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾(الحجرات ١٠).

﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

(الأنفال ١) .

﴿ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

(النساء ١١٤) .

بل جعلت الشريعة سهمًا من حصيلة الزكاة للغارمين في إصلاح ذات البَيْن ، إعانة لهم على القيام بهذه المكرمات ، التي كان يقوم بها أصحاب القلوب الكبيرة والهمم العالية ، فيتحملون ما بين القبائل المتخاصمة من ديات ومغارم ، وإن ضاقت بذلك أموالهم .

ولأهمية إصلاح ذات البَيْن ، رخّص النبي ﷺ لمَن يقوم بالإصلاح ألا يلتزم الصدق الكامل في وصف موقف كل طرف من الآخر ، فنقل بعض العبارات كما قيلت ، قد يؤجج نار الخصومة ولا يطفئها ، فلا بأس بشيء من التزيين ، وشيء من المعاريض ، وفي هذا جاء الحديث الصحيح : « ليس بكذّاب مَن أصلح بين اثنين فقال خيرًا ، أو أنمى خيرًا »[1] .

وأعلى من هذه الدرجة ـ درجة سلامة الصدور من الأحقاد والبغضاء ـ الدرجة التي عبّر عنها الحديث الصحيح الذي يقول : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[2] .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في الصلح (٢٦٩٢) ، ومسلم في البر والصلة (٢٦٠٥) ، عن أم كلثوم بنت عقبة .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري (١٣) ، ومسلم (٤٥) ، كلاهما في الإيمان ، عن أنس .

وفي لفظ : « والذي نفسي بيده لا يؤمن عبد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير »[1].

ومقتضى ذلك : أن يكره له ما يكره لنفسه .

فإذا كان يحب لنفسه رغد العيش أحب ذلك لسائر الناس .

وإذا كان يحب أن يوفق في حياته الزوجية ، أحب للناس أن يكونوا سعداء موفقين .

وإذا كان يحب أن يكون أولاده نجباء ، أحب ذلك لغيره .

وإذا كان لا يحب أن يذكره أحد بسوء في حضرته أو غيبته ، كان موجب الإيمان ألا يحب ذلك للناس أجمعين .

فهو ينزل إخوانه منزلة نفسه في كل ما يحب ويكره .

● درجة الإيثار :

وثمت درجة أعلى من هذه وتلك : هي درجة الإيثار .

ومعنى الإيثار : أن يقدّم أخاه على نفسه في كل ما يحب ، فهو يجوع ليشبع أخوه ، ويظمأ ليرتوي ، ويسهر لينام ، ويجهد ليرتاح ، ويُعرِّض صدره للرصاص ليفدي أخاه .

وقد عرض لنا القرآن صورة وضيئة للمجتمع المسلم في المدينة ، يتجلى فيها معنى الإيثار والبذل ، من غير شح ولا بخل . يقول تعالى : ﴿ **وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ** ﴾ (الحشر ٩) .

---

(١) رواه أحمد (١٣٦٢٩) ، وقال مخرجوه : إسناده صحيح على شرط الشيخين . والنسائي في الإيمان (٥٠١٧) ، عن أنس . وصححه ابن حبان (٢٣٥) ، والضياء في المختارة (٢٥٢٥) .

وفي السُّنَّة نجد صورة أخرى تتمثل فيما رواه البخاري : أن سعد بن الربيع عرض على عبد الرحمن بن عوف ـ وقد آخى النبي ﷺ بينهما ـ أن يتنازل عن شطر ماله ، وعن إحدى داريه ، وإحدى زوجتيه ، يطلقها ليتزوجها هو . فقال ابن عوف لسعد : بارك الله لك في أهلك ، وبارك الله لك في دارك ، وبارك الله لك في مالك ، إنما أنا امرؤ تاجر ، فدلوني على السوق[1] !

إيثار نادر قلّ أن تعرف الدنيا له نظيرًا ، يقابله تعفف كريم نبيل ، وكلاهما يعطينا ملمحًا من ملامح المجتمع المسلم الذي أقامه الرسول الكريم ﷺ في المدينة ، والذي نرنو إلى مثله دائمًا ، باعتباره مثلاً أعلى للمجتمعات .

والإسلام يحرص كل الحرص على أن تسود المحبة والأخوة بين الناس جميعًا : بين الشعوب بعضها وبعض ، لا يفرق بينهما اختلاف عنصر أو لون أو لغة أو إقليم .

وبين الطبقات بعضها وبعض ، فلا مجال لصراع أو حقد ، وإن تفاوتوا في الثروة والمنزلة ، وفضل الله بعضهم على بعض في الرزق .

وبين الحكام والمحكومين ، فلا محل لاستعلاء حاكم على محكوم ، فإن الحاكم هو وكيل الأمة ؛ بل أجيرها ، ولا لبغض محكوم لحاكم ما دام يأخذ حقه ، كما يؤدي واجبه ، وفي الحديث : « خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ، وتصلون عليهم ، ويصلون عليكم »[2] أي تدعون لهم ، ويدعون لكم ، فالصلاة هنا بمعناها اللغوي وهو الدعاء .

• ربط النظرية بالتطبيق :

والإسلام لا يحب أن تكون دعوته مجرد فكرة في الرؤوس ، أو حلمًا في أخيلة المصلحين ، بل يجب أن يربط الفكرة بالعمل ، والنظرية بالتطبيق . . لهذا دعا إلى

---

(١) رواه البخاري في البيوع (٢٠٤٩) ، عن أنس .

(٢) رواه مسلم في الإمارة (١٨٥٥) ، عن عوف بن مالك .

مجموعة من الشعائر والآداب والتقاليد من شأنها أن توثق روابط المحبة بين الناس ، إذا عملوا بها ، وحافظوا عليها .

من ذلك إفشاء السلام كلما لقي بعضهم بعضًا ، وهذا ما نبَّه عليه الحديث الصحيح : « والذي نفسي بيده ، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا . ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم »(١) .

ومن ذلك مجاملة الناس بعضهم لبعض ، في التهنئة عند النعمة ، والتعزية عند المصيبة ، وعيادة المريض ، وتشميت العاطس .

ومن ذلك : التهادي بين الناس في المناسبات الطيبة . وفي الحديث : « تهادوا تحابوا »(٢) .

ومن ذلك : التلاقي ، الذي به تتعارف الوجوه ، وتتصافح الأيدي ، وهذا ما شرعه الإسلام بصلاة الجماعة والجمعة والعيدين .

كما حرّم الإسلام كل الرذائل الخُلُقية والاجتماعية التي تفضي إلى تقطع أواصر المحبة والمَودّة بين الناس ، ولهذا رأينا القرآن الكريم بعد أن قرر أن المؤمنين إخوة : أتبع ذلك بالنهي عن مجموعة من الرذائل التي تنافي الأخوة ، وتُعمل في بنيانها هدمًا . مثل السخرية واللمز والتنابز بالألقاب ، والتجسس على الناس ، وتتبع عوراتهم ، وسوء الظن بهم ، والحديث عنهم بسوء في غيبتهم ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (٥٤) ، عن أبي هريرة .

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (٥٩٤) ، عن عائشة ، والطبراني في الأوسط (٧٢٤٠) ، وأبو يعلى (٦١٤٨) ، عن أبي هريرة . وحسنه ابن حجر في التلخيص الحبير (١٣١٥) . وقال العراقي : سند جيد .

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الحجرات ١١-١٢) .

● الوحدة من لوازم الإخاء :

ومن لوازم الأخوة ومظاهرها : الوحدة . ومما يضادها وينقضها : الفُرقة .

فالمجتمع المسلم المتآخي مجتمع واحد في عقائده الإيمانية ، وفي شعائره التعبدية ، وفي مفاهيمه الفكرية ، وفي فضائله الأخلاقية ، وفي اتجاهاته النفسية ، وآدابه السلوكية ، وفي تقاليده الاجتماعية ، وفي قيمه الإنسانية ، وفي أسسه التشريعية .

واحد في أهدافه التي تصل الأرض بالسماء ، والدنيا بالآخرة ، والخلق بالخالق ، وفي أسس مناهجه التي تجمع بين المثالية والواقعية ، وتوازن بين الثبات والتطور ، وبين استلهام التراث والاستفادة من العصر .

واحد **في مصادره** التي يستمد منها هدايته ، وهي القرآن الكريم والسُّنَّة المطهرة ، وفي المثل الأعلى الذي يستمد منه الأسوة الحسنة ، وهو الرسول الأعظم ﷺ .

فهو مجتمع يؤمن برب واحد ، وكتاب واحد ، ورسول واحد ، ويتجه إلى قِبْلة واحدة بشعائر واحدة ، ويحتكم في كل أموره إلى شريعة واحدة : وولاؤه ـ حيث كان ـ ولاء واحد ، لله ولرسوله ولأمة الإسلام . في الله يحب ، وفيه يبغض ، وفيه يصل ، وفيه يقطع : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾

(المجادلة ٢٢) .

لا ينبغي أن يفرق هذا المجتمع ما يفرق المجتمعات الأخرى من العصبية للجنس أو اللون ، أو الوطن أو اللغة ، أو الطبقة أو المذهب ، أو غير ذلك مما يمزق الجماعات .

فالأخوة الإسلامية فوق كل العصبيات أيًّا كان اسمها ونوعها . والرسول الكريم - ﷺ - بريء من كل العصبيات : « ليس منا مَن دعا إلى عصبية ، وليس منا مَن قاتل على عصبية ، وليس منا مَن مات على عصبية »[1] .

والقرآن يحذر من دسائس غير المسلمين الذي يكيدون لهم ليفرقوا كلمتهم ، ويمزقوا وحدتهم ، كما فعل ذلك اليهود في الإيقاع بين الأوس والخزرج بعد أن جمعهم الله على الإسلام : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ۝ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (آل عمران ١٠٠-١٠١) إلى أن قال : ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (آل عمران ١٠٣) .

وفي هذا السياق حذّر من التفرق والاختلاف فقال : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾(آل عمران ١٠٥).

وبين آية الأمر بالاعتصام بحبل الله وآية التحذير من التفرق والاختلاف ، ذكرت آية تكليف الأمة بالدعوة والأمر والنهي : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾(آل عمران ١٠٤).

وهذا يدلنا على أنّ الذي يوحد الأمة ويجمع شتاتها : وجود منهج موحد تعتصم به وترجع إليه ، وهو هنا حبل الله : الإسلام والقرآن ، ووجود رسالة مشتركة تشتغل بها ، وتجعلها أكبر همها ، وهي هنا الدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

---

(١) رواه أبو داود في الأدب (٥١٢١) ، والبغوي في شرح السنة (٣٥٤٣) ، وحسنه السيوطي في الصغير (٧٦٨٤) ، عن جبير بن مطعم .

أما إذا قعدت الأمة عن الرسالة ، أو فقدت المنهج ، فإن السبل ستتفرق بها عن يمين وشمال ، والشياطين ستتجاذبها من شرق وغرب ، وهو ما حذر منه القرآن بقوله : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (الأنعام ١٥٣) .

والوحدة المفروضة في الأمة المسلمة لا تعارض التنوع الذي يقتضيه اختلاف البيئات والأعراف بتأثير الحضارات المختلفة ، والمواريث الثقافية المتعددة . فهو تنوع في إطار الوحدة الجامعة ، وهو أشبه بتنوع المواهب والميول والأفكار والتخصصات ، داخل الأسرة الواحدة ، أو تنوع الأزهار والثمار داخل الحديقة الواحدة : ﴿ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ﴾(الرعد ٤) .

ومن أهم ما جاء به الإسلام هنا : شرعية تعدد الاجتهادات في إطار القواعد الكلية والنصوص القطعية المتفق عليها ، فلا يجوز أن ينكر مجتهد على مجتهد ، وإن اختلف معه في المشرب ، ولكلٍ وجهته ، ولكلٍ أجره ، أصاب أم أخطأ ، ما دام من أهل الاجتهاد ، واختلاف الآراء لا يجوز أن يكون سبب تفرق أو عداوة ، فقد اختلف الصحابة وتابعوهم بإحسان في قضايا كثيرة ، ولم يؤدهم ذلك إلى التفرق ، بل وسع بعضهم بعضًا ، وصلى بعضهم وراء بعض .

ومما يضيق الخلاف أن أمر الإمام أو حكم الحاكم في المسائل الخلافية يرفع الخلاف ، ويحسم النزاع من الناحية العملية .

● التعاون والتناصر والتراحم :

ومن لوازم الإخاء في الإسلام : التعاون والتراحم والتناصر ، إذ ما قيمة الأخوة إذا لم تعاون أخاك عند الحاجة ، وتنصره عند الشدة ، وترحمه عند الضعف؟

لقد صوّر الرسول الكريم ﷺ مبلغ التعاون والترابط بين أبناء المجتمع المسلم بعضه وبعض هذا التصوير البليغ المعبِّر حين قال : « المؤمن للمؤمن كالبنيان ،

يشد بعضه بعضًا » ، وشبَّك بين أصابعه[1] . فاللبنة وحدها ضعيفة مهما تكن متانتها ، وآلاف اللبنات المبعثرة المتناثرة لا تصنع شيئًا ، ولا تكوّن بناءً . إنما يتكون البناء القوي من اللبنات المتماسكة المتراصة في صفوف منتظمة ، وفق قانون معلوم ، عندئذ يتكون من اللبنات جدار متين ، ومن مجموع الجُدُر بيت مكين ، يصعب أن تنال منه أيدي الهدّامين .

كما صوّر مبلغ تراحم المجتمع وتكامله ، وتعاطف بعضه مع بعض بقوله : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر »[2] ، فهو ترابط عضوي ، لا يستغني فيه جزء عن آخر ، ولا ينفصل عنه ، ولا يحيا بدونه ، فلا يستغني الجهاز التنفسي عن الجهاز الهضمي ، أو كلاهما عن الجهاز الدموي أو العصبي ، فكل جزء متمم للآخر ، وبتعاون الأجزاء وتلاحمها يحيا الكل ، ويستمر نماؤه وعطاؤه .

ويقول : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، يسعى بذمتهم أدناهم ، ويجير عليهم أقصاهم ، وهم يد على مَن سواهم ، يرد مشدهم على مضعفهم ، ومسرعهم على قاعدهم »[3] .

ويُدخِل في نُصرة المسلم للمسلم عنصرًا جديدًا حين يقول : « انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا » . قيل : ننصره مظلومًا ، فكيف ننصره ظالمًا يا رسول الله؟ قال : « تأخذ فوق يديه ، أو تمنعه من الظلم فذلك نصر له »[4] .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في الصلاة (٤٨١) ، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٥) ، عن أبي موسى .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري في الأدب (٦٠١١) ، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٦) ، عن النعمان بن بشير .

(٣) رواه أبو داود في الجهاد (٢٧٥١) ، وابن الجارود في المنتقى (١٠٧٣) ، عن عمرو ابن شعيب ، عن أبيه ، عن جده .

(٤) رواه البخاري في الإكراه (٦٩٥٢) ، عن أنس .

والقرآن الكريم يوجب التعاون ويأمر به بشرط أن يكون تعاونًا على البر والتقوى، ويحرِّمه وينهى عنه إذا كان على الإثم والعدوان. يقول تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ (المائدة ٢).

ويجعل المؤمنين أولياء بعضهم على بعض، بمقتضى عقد الإيمان، كما قال تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ (التوبة ٧١)، وهذا في مقابلة وصف مجتمع المنافقين بقوله: ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ (التوبة ٦٧).

كما وصف مجتمع الصحابة بأنهم: ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (الفتح ٢٩)، فالتراحم سمة أولى من سمات المجتمع المسلم.

ومقتضى ذلك أن يشد القوي أزر الضعيف، وأن يأخذ الغني بيد الفقير، وأن ينير العالِم الطريق للجاهل، وأن يرحم الكبير الصغير، كما يوقر الصغير الكبير، ويعرف الجاهل للعالِم حقه، وأن يقف الجميع صفًا واحدًا، في الشدائد والمعارك العسكرية والسلمية، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ (الصف ٤).

وفي قصص القرآن صور حية للتعاون المثمر البنَّاء.

من ذلك صور التعاون بين موسى وأخيه هارون، وقد سأل الله أن يشد به أزره في قيامه برسالته: ﴿ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾ (طه ٢٩-٣٥).

وكان الجواب الإلهي: ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا ﴾ (القصص ٣٥).

وبهذا كان هارون يعاون أخاه موسى في حضرته، ويخلفه على قومه في غيبته.

ومن صور التعاون ما قصّه علينا القرآن من إقامة سد ذي القرنين العظيم، ليقف

حاجزًا ضد هجمات يأجوج ومأجوج ، المفسدين في الأرض . وكان ثمرة للتعاون بين الحاكم الصالح والشعب الخائف من بغي الأقوياء عليه : ﴿ قَالُوا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ (الكهف ٩٤-٩٧) .

● التكافل المادي والأدبي :

ومن مظاهر هذا التعاون والتراحم والتناصر : التكافل بين أبناء المجتمع المسلم ، وهو تكافل مادي ومعنوي ، اقتصادي وسياسي ، عسكري ومدني ، اجتماعي وثقافي .

يبدأ هذا التكافل بين الأقارب بعضهم وبعض ، كما يفصِّل ذلك نظام النفقات في شريعة الإسلام . فالقريب الموسر ينفق على قريبة المعسر وفق شروط وأحكام مفصَّلة في الفقه الإسلامي ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ (الأنفال ٧٥) .

ثم تتسع دائرة هذا التكافل لتشمل الجيران وأبناء الحي الواحد في البلد الواحد ، بمقتضى حق الجوار ، الذي أكده الإسلام ، وفي الحديث : « ليس بمؤمن مَن بات شبعان وجاره إلى جنبه جائع »[1] .

وروي : « أيُّما أهل عرصة بات فيهم امرؤ جائع ، فقد برئت منهم ذمة الله وذمة رسوله »[2] .

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (١١٢)، والطبراني في الكبير (١٢٧٤١)، وصححه الحاكم في البر والصلة (٧٣٠٧) ، ووافقه الذهبي ، عن ابن عباس .
(٢) رواه أحمد (٤٨٨٠) ، والبزار (٥٣٧٨) ، وأبو يعلى (٥٧٤٦) ، والحديث فيه مقال .

ثم تتسع أكثر وأكثر بحيث تشمل الإقليم عن طريق الزكاة ، التي أمر الرسول الكريم ﷺ أن تؤخذ من أغنياء كل إقليم لتُرَد على فقرائه ، فوضع بذلك أساس التوزيع المحلي ، على عكس ما كان يُصنع في الحضارات السابقة على الإسلام ، فقد كانت الضرائب تؤخذ من مزارعي ومحترفي الأقاليم النائية والقرى البعيدة ، لتوزع في المدن الكبيرة ، ولا سيما عاصمة الملك أو الإمبراطور .

ثم تزداد اتساعًا ليشمل التكافل المجتمع كله .

ومنذ فجر الدعوة إلى الإسلام في مكة ، والمسلمون أفراد معدودون مضطهَدون ، ليس لهم كيان ولا سلطان ، كان القرآن يدعو بقوة إلى هذا التكافل بجعل المجتمع كالأسرة الواحدة ، يصب الواجد فيه على المحروم ، ويحمل فيه الغني الفقير .

ولم يجعل القرآن ذلك شيئًا من نوافل الدين ، يقوم به مَن ترقي في درجات الإيمان والإحسان ، ولا يطالَب به الشخص العادي من الناس .

بل اعتبره القرآن أمرًا أساسيًا من دعائم الدين ، لا يحظى برضا الله مَن لم يقم به ، ولا ينجو من عذابه مَن فرّط فيه .

اقرأ في السور المكية مثل هذه الآيات : ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ (البلد ١١-١٧) .

وقوله تعالى في سورة أخرى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ . . . ﴾(المدثر ٣٨-٤٤) .

فجعل مصيرهم النار : لأنهم أضاعوا حق الله بإضاعة الصلاة ، وأضاعوا حق عباده ، إذ لم يطعموا المسكين .

وإطعام المسكين كناية عن رعاية ضروراته وحاجاته ، إذ لا معنى لأن نطعم المسكين وندعه مشردًا بلا مأوى ، أو عريانًا بلا كسوة ، أو مريضًا بلا علاج .

ولم يكتفِ القرآن بإيجاب إطعام المسكين ، بل زاد على ذلك فأوجب الحض على إطعامه ، والحث على رعايته ، وجعل إهمال ذلك من دلائل الكفر والتكذيب بالدين : ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ (الماعون ١-٣) .

ويجعل ذلك مع الكفر بالله من موجبات العذاب الأليم ، واصطلاء الجحيم . فيقول في شأن أصحاب الشمال ممن أطغاه ماله وسلطانه ، فلم يغن عنه من الله شيئًا : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴾ (الحاقة ٣٠-٣٢) ، ثم يذكر أسباب هذا الحكم الشديد ، فيقول : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۝٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ (الحاقة ٣٣-٣٤) .

ويزيد على ذلك فيوجب في المال حقًّا معلومًا ، ليس بصدقة تطوعية ، ولا بإحسان اختياري ، مَن شاء أدّاه ، ومَن شاء تركه ، بل (حق) : أي (دَيْن) - في عنق المكلّفين ، وحق معلوم غير مجهول ، كما في قوله تعالى في وصف المتقين : ﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ (الذاريات ١٩) .

وفي سورة أخرى يصف الحق بالمعلومية فيقول : ﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ (المعارج ٢٤-٢٥) .

وفي الحديث عن الزروع والثمار ، والجنات المعروشات وغير المعروشات ، يقول سبحانه : ﴿ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴾ (الأنعام ١٤١) .

وهذا الحق هو الزكاة ، التي فرضت في مكة غير محددة ولا مفصلة .

كل هذا في القرآن المكي ، فلما أصبح للمسلمين دولة وسلطان ، حددت أنصبة الزكاة ومقاديرها بوضوح ، وبعث السعاة ليجمعوها من أهلها ، ويصرفوها في محلها . وهم الذين سماهم القرآن : (العاملين عليها) ، وجعل لهم نصيبًا من حصيلة الزكاة نفسها ، ضمانًا لحسن تحصيلها وتوزيعها . ووصل الإسلام بهذه الفريضة المالية إلى أعلى درجات الإلزام الخُلُقي والتشريعي ، فجعلها ثالث أركان

الإسلام، وأوجب أخذها كرهًا، إن لم تُدفع طوعًا، ولم يتردد في قتال مَن منعوها، إذا كانوا ذوي شوكة وقوة.

وهذا التكافل المادي أو المعيشي ليس هو كل ما طلبه الإسلام في هذا المجال، بل هناك أنواع أخرى من التكافل، ذكرها العلامة الفقيه الداعية الدكتور مصطفى السباعي ـ رحمه الله ـ وجعلها بالتكافل المعيشي عشرة كاملة[1]، فشملت: التكافل الأدبي، والعلمي، والسياسي، والدفاعي، والجنائي، والأخلاقي، والاقتصادي، والعبادي، والحضاري، والمعاشي، الذي اختص اليوم باسم (التكافل الاجتماعي).

● أخوة لكل الفئات بلا طبقية:

الأخوة في الإسلام تشمل كل فئات المجتمع، فليس هناك فئة من الناس أعلى من أن تؤاخي الآخرين، ولا فئة أهون من أن يؤاخيها الآخرون، لا يجوز أن يكون المال أو المنصب أو النسب، أو أي وضع اجتماعي أو مادي أو غير مادي؛ سببًا لاستعلاء بعض الناس على بعض.

فالحاكم أخو المحكوم، والراعي أخ لرعيته، وفي الحديث: «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم، ويصلون عليكم (أي تدعون لهم، ويدعون لكم)، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم»[2].

والسيد أخ لعبده، وإن أوجبت ظروف خاصة أن يكون تحت يده. وفي الصحيح: «إخوانكم خولكم (أي خدمكم) جعلهم الله تحت أيديكم، فمَن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل، ويلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون، فإن كلفتموهم فأعينوهم»[3].

---

(١) تراجع في كتابه (اشتراكية الإسلام) صـ١١٢-١١٦.

(٢) رواه مسلم في الإمارة (١٨٥٥)، عن عوف بن مالك.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الإيمان (٣٠)، ومسلم في الأيمان (١٦٦١)، عن أبي ذر.

والأغنياء والفقراء ، والعمال وأرباب العمل ، والملاك والمستأجرون ، كلهم أخوة بعضهم لبعض ، فلا مجال ـ في ضوء تعاليم الإسلام ـ لصراع اجتماعي ، أو حقد طبقي .

بل لا يوجد في المجتمع الإسلامي طبقات ، كما عُرِف ذلك في المجتمع الغربي في العصور الوسطى ، الذي عرف طبقات النبلاء والفرسان ، ورجال الدين وغيرهم ، وكانت هذه الطبقية تتوارث ، بحكم القيم والتقاليد والقوانين السائدة .

ولا زال بعض الأمم إلى اليوم يتوارث الطبقية بحكم عقائده وأعرافه وأنظمته ، كما في الهند .

يوجد في الإسلام أغنياء ، ولكنهم لا يكوِّنون طبقة تتوارث الغنى ، بل هم أفراد يجري عليهم ما يجري على غيرهم ، فالغني قد يفتقر ، كما أن الفقير قد يغتني : ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ (الشرح ٥) .

ويوجد في الإسلام (علماء دين) ولكنهم لا يكوّنون طبقة تتوارث هذه المهنة ، بل هي وظيفة مفتوحة لكل مَن حصل مؤهلاتها من العلم والدراسة ، وهي على كل حال ليست وظيفة كهنوتية ، كوظائف القسس ورجال الدين في الأديان الأخرى ، إنما هي وظيفة تعليم ودعوة وإفتاء . فهم (علماء) لا (كهنة)!

وإذا كان الله تعالى يخاطب رسوله ﷺ بقوله : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ (الغاشية ٢١-٢٢) ، ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ (ق ٤٥) ، فكيف بورثته من العلماء؟ إنهم لن يكونوا ـ قطعًا ـ مسيطرين ، ولا جبارين على الناس . إنما هم معلِّمون ومذكِّرون .

* * *